

الإسلام دين كامل

للعامة الشيخ

محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي

١٣٠٥ هـ - ١٣٩٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذه محاضرة ألقيتها في المسجد النبوي بطلب من ملك المغرب، فطلب مني بعض إخواني تقييدها لنشرها، فلبيت طلبه راجياً من الله أن ينفع بها.

قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ

لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ذلك اليوم يوم عرفة، وهو يوم الجمعة في حجة الوداع، نزلت هذه الآية الكريمة^(١) والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات عشية ذلك اليوم، وعاش صلى الله عليه وسلم بعد نزولها إحدى وثمانين ليلة، وقد صرح الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أكمل لنا ديننا فلا ينقصه أبداً، ولا يحتاج إلى زيادة أبداً؛ ولذلك ختم الأنبياء بنبينا، عليهم صلوات الله وسلامه جميعاً. وصرح فيها أيضاً بأنه رضي لنا الإسلام ديناً فلا يسخطه أبداً،

(١) كما في حديث عمر بن الخطاب المتفق عليه: البخاري، كتاب الإيمان باب زيادة الإيمان ونقصانه (١٧١)، ومسلم، كتاب التفسير (٢٣١٢/٤)، رقم الحديث (٣٠١٧).

ولذا صرح بأنه لا يقبل غيره من أحد، قال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وفي إكمال الدين وبيان جميع أحكامه كل نعم الدارين، ولذا قال: ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣].

وهذه الآية الكريمة نص صريح في أن دين الإسلام لم يترك شيئاً يحتاج إليه الخلق في الدنيا ولا في الآخرة إلا أوضحه وبينه كائناً ما كان.

وسنضرب لذلك المثل ببيان عشر مسائل عظام عليها مدار الدنيا من المسائل التي تهتم العالم في الدارين، وفي البعض تنبيه لطيف على الكل:

[الأولى] التوحيد.

[الثانية] الوعد.

[الثالثة] الفرق بين العمل الصالح وغيره.

[الرابعة] تحكيم غير الشرع الكريم.

[الخامسة] أحوال الاجتماع بين المجتمع.

[السادسة] الاقتصاد.

[السابعة] السياسة.

[الثامنة] مشكلة تسليط الكفار على المسلمين.

[التاسعة] مشكلة ضعف المسلمين عن مقاومة الكفار في العدد والعدد.

[العاشرة] مشكلة اختلاف القلوب بين المجتمع. ونوضح علاج تلك المشاكل من القرآن، وهذه إشارة خاطفة إلى بيان جميع ذلك بالقرآن تنبيهاً به على غيره.

١- أما الأولى: وهي التوحيد:

فقد علم باستقراء القرآن أنه منقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده جل وعلا في ربوبيته :

وهذا النوع من التوحيد جُبلت عليه فطر العقلاء، قال تعالى: ﴿وَلَيْن

سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ﴾ الآية [الزخرف: ٨٧].

وقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ إلى

قوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، والآيات بنحو ذلك كثيرة.

وإنكار فرعون لهذا النوع في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

[الشعراء: ٢٣] مكابرة وتجاهل؛ بدليل قوله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ

هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ الآية [الإسراء: ١٠٢]، وقوله:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]؛ ولهذا كان

القرآن ينزل بتقرير هذا النوع من التوحيد بصيغة استفهام التقرير، كقوله: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦]، ونحو ذلك لأنهم يقرون به.

وهذا النوع من التوحيد لم ينفع الكفار، لأنهم لم يوحده جل وعلا في عبادته، كما قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أُنْتَبِئُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ [يونس: ١٨].

النوع الثاني: توحيده جل وعلا في عبادته

وهو الذي وقعت فيه جميع المعارك بين الرسل والأمم، وهو الذي أرسلت الرسل لتحقيقه، وحاصله هو معنى لا إله إلا الله، فهو مبني على أصليين: هما النفي والإثبات من (لا إله إلا الله). فمعنى النفي منه: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادة كائنة ما كانت.

ومعنى الإثبات منها: هو إفراده جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادة على الوجه الذي شرع أن يعبد به، وجُلُّ القرآن في هذا النوع: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [٢١].

[الأنبياء: ٢٥]، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ
الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ
الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا
إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، والآيات في
هذا كثيرة جداً.

النوع الثالث: هو توحيده جل وعلا في أسمائه وصفاته

وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين كما بينه جل وعلا:

الأول: هو تنزيهه تعالى عن مشابهة صفات الحوادث.

والثاني: هو الإيمان بكل ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله
صلى الله عليه وسلم حقيقة لا مجازاً على الوجه اللائق بكماله
وجلاله، ومعلوم أنه لا يصف الله أعلم بالله من الله، ولا يصف
الله - بعد الله - أعلم بالله من رسول الله. والله عز وجل يقول عن
نفسه: ﴿أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ويقول عن رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

هو إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

فقد بين تعالى نفي المماثلة عنه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وبيّن

إثبات الصفات له على الحقيقة بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فأول الآية يقضي بعدم التعطيل، فيتضح من الآية أن

الواجب إثبات الصفات حقيقة من غير تمثيل، ونفي المماثلة من غير تعطيل، وبَيَّنَّ عجز الخلق عن الإحاطة به جل وعلا، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

٢- وأما المسألة الثانية: التي هي الوعظ

فقد أجمع العلماء على أن الله تعالى لم يُنزل من السماء إلى الأرض واعظاً أكبر ولا زاجراً أعظم من موعظة المراقبة والعلم، وهي: أن يُلاحظ الإنسان أن ربه جل وعلا رقيب عليه، عالم بكل ما يُخفي وما يُعلن.

وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم مثلاً يصير به المعقول كالمحسوس، قالوا: لو فرضنا ملكاً سَفَاكاً للدماء قَتَّالاً للرجال، شديد البطش والنكال، وسيِّفُهُ قائم على رأسه، والنُّطع مبسوط، والسيف يقطر دمًا، وحول ذلك الملك بناته وأزواجه، أيخطر في البال أن يَهُمَّ أحد من الحاضرين بريبة أو نيل حرام من بنات ذلك الملك وأزواجه وهو عالم به ناظر إليه؟! لا، وكلا - والله المثل الأعلى - بل كل الحاضرين يكونون خائفين خاضعة قلوبهم، خاشعة عيونهم، ساكنة جوارحهم، غاية أمانيتهم السلامة، ولا شك - والله المثل الأعلى - أن الله جل وعلا أعظم اطلاعاً، وأوسع

علماً من ذلك الملك، ولا شك أنه أعظم نكالا، وأشد بطشاً، وأفظع عذاباً، وحماه في أرضه محارمه، ولو علم أهل بلد أن أمير البلد يُصبح عالماً بكل ما فعلوه بالليل لباتوا خائفين وتركوا جميع المناكر خوفاً منه.

وقد بينَّ تعالى أن الحكمة التي خلق الخلق من أجلها هي أن يتلّهم: أي يختبرهم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، قال في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، ولم يقل: (أيكم أكثر عملاً).

وقال في الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وهاتان الآيتان تبيان المراد من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولما كانت الحكمة في خلق الخلائق الاختبار المذكور، أراد جبريل أن يُبين للناس طريق النجاح في ذلك الاختبار، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ - أي وهو الذي خُلِقَ الخَلْقُ لأجل الاختبار فيه - فبين صلى الله عليه وسلم أن طريق الإحسان هي هذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم المذكور، فقال: "هُوَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ

يَرَاكَ^(١)؛ ولهذا لا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا وجدت فيها هذا الواعظ الأعظم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ^ط وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ^ط﴾. ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [لق: ١٦، ١٨]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَمَ^ط وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]. ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ^ط وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ^ط أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ^ط إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]. ونحو هذا في كل موضع من القرآن.

٣- وأما المسألة الثالثة: التي هي: الفرق بين العمل الصالح، وغيره: فقد بين القرآن العظيم: أن العمل الصالح : هو ما استكمل ثلاثة أمور، ومتى اختل واحد منها فلا نفع فيه لصاحبه يوم القيامة:

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان (١/١٨)، ومسلم كتاب الإيمان (١/٣٩)، رقم الحديث (٩). وأخرجه مسلم أيضا من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كتاب الإيمان (١/٣٦) رقم الحديث (٨).

الأول: أن يكون مطابقاً لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم^(١)؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ويقول: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، ﴿اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّونَ﴾ [يونس: ٥٩].

الثاني: أن يكون خالصاً لوجهه تعالى، لأنه يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ويقول: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ❶ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ❷ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ❸ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ❹ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ❺ [الزمر: ١١ - ١٥].

الثالث: أن يكون مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن العمل كالسقف، والعقيدة كالأساس:

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (١٦٧/٣)، ومسلم كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٣٤٣/٣) رقم الحديث (١٧١٨)، عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ"، وفي رواية: "مَا لَيْسَ مِنْهُ"، وفي رواية لمسلم: "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ".

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: ١٢٤]، فقيد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وقال في غير المؤمن: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]. إلى غير ذلك من الآيات.

٤- وأما المسألة الرابعة: التي هي: تحكيم غير الشرع الكريم :

فقد بين القرآن أنها كفر بواح وشرك بالله تعالى، ولما أوحى الشيطان إلى كفار مكة أن يسألوا نبينا صلى الله عليه وسلم عن الشاة تُصبح ميتة: من قتلها؟ فقال: "اللَّهُ قَتَلَهَا" فأوحى إليهم أن يقولوا له: ما ذبحتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة حرام؟ فأنتم إذن أحسن من الله^(١) أنزل الله: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَيُؤْخِرُ إِلَىٰ أُولِيَآبِهِمْ لِيُجْدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

(١) أخرجه من حديث ابن عباس: أبو داود كتاب الأضاحي، ١٣- باب في ذبائح أهل الكتاب (٢٤٥١٣)، رقم الحديث (٢٨١٨)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة الأنعام) (٢٤٦١٥)، رقم الحديث (٣٠٦٩)، والنسائي كتاب الضحايا، باب تأويل قول الله عز وجل: (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه)، (٢٣٧/٧) رقم الحديث (٤٤٣٧) بتحقيق عبدالفتاح أبي غدة، وأخرجه ابن ماجه بمعنى آخر، كتاب الذبائح باب التسمية عند الذبح (١٠٥٩/٢)، رقم الحديث (٣١٧٣).

وعدم دخول الفاء على جملة ﴿إِنَّكُمْ لَشُرَّكُونَ﴾ قرينة ظاهرة على تقدير لام توطئة القسم، فهو قسم من الله أقسم به جل وعلا في هذه الآية الكريمة على أن من أطاع الشيطان في تشريعه تحليل الميتة أنه مشرك، وهو شرك أكبر مخرج عن الملة الإسلامية بإجماع المسلمين، وسيوبخ الله يوم القيامة مرتكبه بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٠﴾ ليس: ٦٠، ٦١.

وقال تعالى عن خليله: ﴿يَتَأْتِيَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤]، أي باتباعه في تشريع الكفر والمعاصي.

وقال: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]، أي ما يعبدون إلا شيطاناً وذلك باتباعهم تشريعه.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، فسماهم شركاء لطاعتهم لهم في معصية الله بقتل الأولاد.

ولما سأل عدي بن حاتم رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: ٣١]، أجابه النبي صلى الله عليه وسلم بأن معنى اتخاذهم أرباباً: هو اتباعهم لهم في

تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه^(١) وهذا أمر لا نزاع فيه: ﴿الْم تَر إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]. وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، فقوله: ﴿صِدْقًا﴾ أي: في الأخبار ﴿وَعَدْلًا﴾ أي: في الأحكام، ﴿أَفْحَكُمُ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

٥- وأما المسألة الخامسة: التي هي: أحوال الاجتماع:

فقد شفى فيها القرآن الغليل، وأنار فيها السبيل.

فانظر إلى ما يأمر الرئيس الكبير أن يفعله مع مجتمعه: ﴿وَأَخْفِضْ

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة التوبة (٢٥٩/٥)، رقم الحديث (٣٠٩٥)، وقال: (هذا حديث غريب).

جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ [الشعراء: ٢١٥].

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وانظر إلى ما يأمر المجتمع العام أن يفعله مع رؤسائه : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ

ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وانظر إلى

ما يأمر الإنسان أن يفعله مع مجتمعه الخاص؛ كأولاده وزوجته:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ

غِلَظُ شِدَادٍ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ [التحريم: ٦].

وانظر كيف ينبهه على الحذر والحزم من مجتمعه الخاص،

ويأمره إن عثر على ما لا ينبغي أن يعفو ويصفح، فيأمره أولاً بالحزم

والحذر، وثانياً بالعفو والصفح: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ

وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ؕ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ [التغابن: ١٤].

وانظر إلى ما يأمر أفراد المجتمع العام أن يتعاملوا به فيما بينهم:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا

يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴿١٢﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَبِّ بِئْسَ الْأَتَمُّ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. إلى غير ذلك.

ولما كان المجتمع لا يسلم فرد من أفرادهِ - كائناً من كان - من مناوئ يُناوئهُ ومُعَادٍ يُعَادِيهِ مِنْ مجتمعه الإنسي والجنّي: ليس يخلو المرء من ضدٍّ ولو حاول العزلة في رأس الجبل وكان كل فرد محتاجاً إلى علاج هذا الداء الذي عمت به البلوى، أوضح تعالى علاجه في ثلاثة مواضع من كتابه: بين فيها أن علاج مُناوأة الإنسيّ: هو الإعراض عن إساءته، ومُقابلتها بالإحسان، وأن شيطان الجن لا علاج لدائه إلا الاستعاذة بالله من شره: الموضع الأول: قوله تعالى في أخريات الأعراف في الإنسي: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وفي نظيره من شياطين الجن: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

الموضع الثاني: في سورة المؤمنين قال فيه في الآية: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وفي نظيره الآخر: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [١٧] وَأَعُوذُ بِكَ

رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

الموضع الثالث: في فصلت، وقد زاد فيه تعالى التصريح بأن ذلك العلاج السماوي يقطع ذلك الداء الشيطاني، وزاد فيه أيضاً أن ذلك السماوي لا يُعطى لكل الناس، بل لا يُعطاه إلا صاحب النصيب الأوفر والحظ الأكبر.

قال فيه في الآية: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [١٢] وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

[فصلت: ٣٤، ٣٥].

وقال في نظيره الآخر: ﴿وَمَا يَنْزَعْنِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ

هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]. وبين في مواضع أخرى أن ذلك

الرفق واللين لخصوص المسلمين دون الكافرين، قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ

بِقَوْمٍ تُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

[الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾

[التوبة: ٧٣].

الشدة في محل اللين حُمقٌ وخرقٌ، واللين في محل الشدة ضعفٌ وخورٌ:

إذا قيل حلمٌ قل فالحلم موضع وحلمُ الفتى في غير موضعه جهلٌ

٦- وأما المسألة السادسة: التي هي: مسألة الاقتصاد:

فقد أوضح القرآن أصولها التي يرجع إليها جميع الفروع، وذلك أن مسائل الاقتصاد راجعة إلى أصليين:

الأول: حسن النظر في اكتساب المال.

الثاني: حسن النظر في صرفه في مصارفه.

فانظر كيف فتح الله في كتابه الطرق إلى اكتساب المال بالأسباب المناسبة للمروءة والدين، وأثار السبيل في ذلك قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقال: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. إلى غير ذلك.

وانظر كيف يأمر بالاقتصاد في الصرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ الآية [البقرة: ٢١٩]، وانظر كيف ينهى عن الصرف فيما لا يحل الصرف فيه: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

٧- وأما المسألة السابعة: التي هي: السياسة :

فقد بين القرآن أصولها وأثار معالمها، وأوضح طُرُقَهَا، وذلك أن السياسة - التي هي مصدرُ ساس يسوس: إذا دبرَ الأمور وأدار الشؤون - تنقسم إلى قسمين: خارجية وداخلية:

أما الخارجية: فمدارها على أصليين:

أحدهما: إعداد القوة الكافية لقمع العدو والقضاء عليه، وقد قال تعالى في هذا الأصل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والثاني: الوحدة الصحيحة الشاملة حول تلك القوة، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال

تعالى: ﴿وَلَا تَنْزِعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِجَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقد أوضح القرآن ما يتبع ذلك من الصلح والهدنة ونبذ العهود إذا اقتضى الأمر ذلك، قال: ﴿فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤]، وقال: ﴿فَمَا اسْتَقِمْوْا لَكُمْ فَاسْتَقِمْوْا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧]، وقال: ﴿وَأِمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، وقال: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣].

وأمر بالحدز والتحرر من مكائدهم وانتهازهم الفُرص، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]. قال: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]. ونحو ذلك من الآيات.

وأما السياسة الداخلية: فمسائلها راجعة إلى نشر الأمن والطمأنينة داخل المجتمع، وكف المظالم، ورد الحقوق إلى أهلها. والجواهر العظام التي عليها مدار السياسة الداخلية ستة: الأول: الدين: وقد جاء الشرع بالمحافظة عليه؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ"^(١)، وفي ذلك ردع بالغ عن تبديل

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس، كتاب الجهاد، باب لا يعذب بعذاب الله (٢١/٤).

الدين وإضاعته.

الثاني: الأنفس: وقد شرع الله في القرآن القصاص؛ محافظة عليها: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ الآية [البقرة: ١٧٩]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٨]، ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ الآية [الإسراء: ٣٣].

الثالث: العقول: وقد جاء القرآن بالمحافظة عليها؛ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وفي الحديث: "كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ"^(١) ولأجل المحافظة على العقول وجب الحد على شارب الخمر. الرابع: الأنساب: وللمحافظة عليها شرع الله حد الزنا: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ الآية [النور: ٢].

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام (١١٢٤/٢)، رقم الحديث (٣٣٩٢).

وطرفه الأول "كل مسكر حرام" متفق عليه من حديث أبي موسى، البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (١٠٨/٥)، مسلم كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام (١٥٨٥/٣)، رقم الحديث (٢٠٠١).

الخامس: الأعراض: ولأجل المحافظة عليها شرع الله جلد القاذف ثمانين: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤].

السادس: الأموال ولأجل المحافظة عليها شرع الله قطع السارق: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨]. فتبين أنه من الواضح أن اتباع القرآن كفيل للمجتمع بجميع مصالحه الداخلية والخارجية.

٨- وأما المسألة الثامنة: التي هي: تسليط الكفار على المسلمين: فقد استشكلها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موجود بين أظهرهم، وأفتى الله جل وعلا فيها بنفسه في كتابه فتوى سماوية أزال بها ذلك الإشكال، وذلك أنه لما وقع بالمسلمين ما وقع يوم أحد استشكلوا ذلك، فقالوا: كيف يُدال منا المشركون ويُسلطون علينا ونحن على الحق وهم على الباطل، فأفتاهم الله في ذلك^(١) بقوله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مَوْصِيَّةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ١٨٢٢- آل عمران) عن الحسن البصري، وله شواهد.

أوضحه على التحقيق بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ^ط حَتَّى^ط إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ^ط مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ^ط﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فبيّن في هذه الفتوى السماوية أن سبب تسليط الكفار عليهم جاءهم من قبل أنفسهم، وأنه هو فشلهم وتنازعهم في الأمر وعصيان بعضهم الرسول ورغبتهم في الدنيا، وذلك أن الرُّمّة الذين كانوا بسفح الجبل يمنعون الكفار أن يأتوا المسلمين من جهة ظهورهم - طمعوا في الغنيمة عند هزيمة المشركين في أول الأمر، فتركوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم لأجل رغبتهم في عرض من الدنيا ينالونه^(١)

٩- وأما المسألة التاسعة: التي هي: مسألة ضعف المسلمين وقلة عددهم وعددهم بالنسبة إلى الكفار :

فقد أوضح الله جل وعلا علاجها في كتابه، فبيّن أنه إن علّم من قلوب عباده الإخلاص كما ينبغي، كان من نتائج ذلك الإخلاص أن

(١) كما في حديث البراء بن عازب عند البخاري، كتاب الجهاد، باب ما يكره من التنازع والاختلاط في الحرب وعقوبة من عصى إمامه (٢٦١٤).

يَقْهَرُوا وَيَغْلِبُوا مِنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُمْ؛ وَلِذَا لَمَّا عَلِمَ جَلَّ وَعَلَا مِنْ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ الْإِخْلَاصِ كَمَا يَنْبَغِي، وَنَوَّهَ بِإِخْلَاصِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]، بَيَّنَّ أَنَّ مِنْ نَتَائِجِ ذَلِكَ الْإِخْلَاصِ أَنَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُهُمْ قَادِرِينَ عَلَى مَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ قَالَ: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: ٢١]، فَصَرَّحَ بِأَنَّهُمْ غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَيْهَا، وَأَنَّهُ أَحَاطَ بِهَا فَأَقْدَرَهُمْ عَلَيْهَا وَجَعَلَهَا غَنِيمَةً لَهُمْ لِمَا عَلِمَ مِنْ إِخْلَاصِهِمْ؛ وَلِذَلِكَ لَمَّا ضَرَبَ الْكُفَّارُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ ذَلِكَ الْحَصَارَ الْعَسْكَرِي الْعَظِيمَ الْمَذْكُورَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ هُنَالِكَ أَتَتْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]، كَانَ عِلَاجُ هَذَا الضَّعْفِ وَالْحَصَارِ الْعَسْكَرِيِّ الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ وَقُوَّةَ الْإِيمَانِ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فَكَانَ مِنْ نَتَائِجِ ذَلِكَ الْإِخْلَاصِ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ

فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٥﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْهُوهاً وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٦﴾ [الأحزاب: ٢٥ - ٢٧]، وهذا الذي نصرهم الله به ما كانوا يظنونونه، وهو الملائكة والريح: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ الآية [الأحزاب: ٩].

ولأجل هذا كان من الأدلة على صحة دين الإسلام أن الطائفة القليلة الضعيفة المتمسكة به، تغلبُ الكثيرة القوية الكافرة: ﴿كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ولذلك سمى الله تعالى يوم بدر (آية) و (بينة) و (فرقاناً)؛ لدلالته على صحة دين الإسلام، قال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٣]، وذلك يوم بدر، وقال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وذلك يوم بدر، وقال: ﴿لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ الآية [الأنفال: ٤٢]، وذلك يوم بدر، على ما حققه بعضهم.

ولا شك أن غلبة الفئة القليلة الضعيفة المؤمنة للكثيرة القوية الكافرة دليلٌ على أنها على الحق، وأن الله هو الذي نصرها؛ كما قال في وقعة بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]،

وقال: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الآية [الأنفال: ١٢].

والمؤمنون الذين وعدهم الله بالنصر، وبين الله تعالى صفاتهم وميزهم بها عن غيرهم قال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ثم ميّزهم عن غيرهم بصفاتهم في قوله: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وهذا العلاج الذي أشرنا إليه أنه علاج للحصار العسكري، أشار تعالى في سورة المنافقين إلى أنه أيضاً علاج للحصار الاقتصادي، وذلك في قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَن عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا﴾ [المنافقون: ٧].

وهذا الذي أراد المنافقون أن يفعلوه بالمسلمين هو عين الحصار الاقتصادي، وقد أشار تعالى إلى أن علاجه قوة الإيمان به وصدق التوجه إليه جل وعلا بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّا الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]؛ لأن من بيده خزائن السماوات والأرض لا يُضيع مُلتجئاً إليه مطيعاً له: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِمَّن حَيْثُ لَا

تَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٢٨﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وبين ذلك أيضاً بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨].

١٠- وأما المسألة العاشرة: التي هي: مشكلة اختلاف القلوب :
فقد بين تعالى في سورة الحشر أن سببها عدم العقل بقوله:
﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ ثم بين السبب بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

ودواء ضعف العقل هو إنارته باتباع نور الوحي؛ لأن الوحي يُرشدُ إلى المصالح التي تقصرُ عنها العقول، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فبين في هذه الآية أن نور الإيمان يحيا به من كان ميتاً ويضيء له الطريق التي يمشي فيها.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

وبالجملة: فالمصالح البشرية التي بها نظام الدنيا راجعة إلى ثلاثة

أنواع:

- ١- الأول: دَرءُ المفسد - المعروف عند أهل الأصول بالضروريات - وحاصله دفع الضرر عن الستة التي ذكرنا قبل، أعني: الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والعرض، والمال.
 - ٢- الثاني: جلب المصالح - المعروف عند أهل الأصول بالحاجات - ومن فروعها: البيوع على القول بذلك، والإجازات، وعامة المصالح المتبادلة بين أفراد المجتمع على الوجه الشرعي.
 - ٣- النوع الثالث: التحلي بمكارم الأخلاق، والجري على محاسن العادات - المعروف عند أهل الأصول بالتحسينات والتتميمات - ومن فروعها: خصال الفطرة؛ كإعفاء اللحية، وقص الشارب. إلخ. ومن فروعها أيضاً: تحريم المستقذرات، ووجوب الإنفاق على الأقارب الفقراء.
- وكل هذه المصالح لا يكون شيء أشدَّ محافظة عليها - بالطرق الحكيمة السليمة - من دين الإسلام: ﴿الرَّكَعَ كَتَبَ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].
- وصلّى الله على محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٤	مسائل الرسالة وأبحاثها
٤	المسألة الأولى. التوحيد وأنواعه.
٥	توحيدہ جل وعلا في ربوبيته.
٥	توحيدہ جل وعلا في عبادته.
٧	توحيدہ جل وعلا في أسمائه وصفاته
٨	المسألة الثانية الوعظ
١٠	المسألة الثالثة الفرق بين العمل الصالح وغيره
١٢	المسألة الرابعة تحكيم غير الشرع. الكريم
١٤	المسألة الخامسة. أحوال الاجتماع.
١٨	المسألة السادسة. مسألة. الاقتصاد.
١٩	المسألة السابعة. السياسة.
٢٢	المسألة الثامنة تسليط الكفار على المسلمين
٢٣	المسألة التاسعة مسألة ضعف المسلمين.
٢٧	المسألة العاشرة مشكلة اختلاف القلوب

